المبحث الأول

أبرز الإشكالات والمخاوف التي تعتري رؤية المسيحيين وشعورهم تجاه صعود التيار الإسلامي في المنطقة

الأنبا يوحنا قلته*

أولاً: لمحة تاريخية

إن كثيراً من المسيحيين العرب في أوطانهم العربية، وبعد تفجر الثورات العربية، وجدوا أنفسهم في حيرة ما بعدها حيرة، أمل في المستقبل يختلط بالقلق، ورجاء يهزه خوف؛ فقد ترسبت فكرة حماية السلطة والحكام للمسيحيين من مواطنيهم الذين اطمأنوا إلى هذا القول، وتعايشوا معه، وساندوا السلطة، وكانوا لها من المخلصين، وكثير من أهل السلطة عمّق هذا الإحساس لدى المسيحيين بأنهم في حماية الملك أو الرئيس، أو الحكومة، مما دفعهم في بداية هذه الثورات إلى مساندة السلطة، أو أقله إلى عدم الانسياق وراء الدعوة للتغيير، خوفاً من هذا التغيير الذي لم تكن ملامحه واضحة.

وفي مصر، فقد كان مجيء عمرو بن العاص (عام ٢٠هـ/ ٦٤١م) إلى أرضها سهلاً؛ فقد عرفها من قبل، وكان يقوم بالتجارة فيها ومعها،

وجعل يهون أمرها لعمر بن الخطاب ليشجعه على فتحها وقال: "إني عالم بها، وبطرقها وهي أقل مَنَعة وأكثر أموالاً"[1].

إن الشعوب المغلوبة التي أفسدتها العبودية خلال القرون الطوال قبل التاريخ العربي والإسلامي، كانت تتحمل تبدُّل سادتها بشيء من عدم المبالاة، فقد كانوا يشاهدون كمتفرجين اجتياح القوات العربية لأراضيهم، ولكنهم

---

* نائب بطريرك الأقباط الكاثوليك- مصر.

١. الكندي: كتاب الولاة والقضاة، طبعة ليون، نشره GUEST، ص٧.

أظهروا شيئاً من العطف نحو العرب، خاصة عندما تأكدوا أن العرب لا يهدفون إلى السلب والنهب، وأنهم يعاملون باللين والرفق جميع الذين يخضعون إليهم بمحض إرادتهم[١].

ومنذ بداية الفتح العربي حتى الثورات العربية، نصّب ملوك وولاة وحكام أنفسَهم حُماةً للمواطنين المسيحيين العرب، واقتنع هؤلاء بالأمر، بالرغم مما فيه من أخطار نجمت عن أمزجة بعض الحكام وشراهتهم لجمع الأموال، وابتزاز الضعفاء والفلاحين، وسادت فكرة حماية السلطة خلال ١٤٠٠ سنة حتى تفجرت الثورات العربية وكشفت عن حقيقة خطيرة وهي أن الشعوب هي التي تحمي نفسها.

قال أحد الباحثين المسيحيين العرب[٢]: "بدون مبالغة يمكن القول إن العبقرية العربية استطاعت أن تبدع للمرة الأولى في التاريخ فكرة انطلاق دولة هي دينية في مبدئها مدنية في هدفها، ألا وهي نشر الإسلام، وفي الوقت ذاته الإقرار بحق الشعوب التي تخضع لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وتراث حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد فيه بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم .."، فهل كانت العلاقة بين المسلمين الفاتحين وبين الشعوب المسيحية العربية طوال تاريخها على وفاق وسلام وصفاء؟ هذا أمر يجافي الحقيقة التاريخية والموضوعية لأسباب كثيرة، نذكر منها:

١. أن الكنائس المحلية العربية كانت تعاني من الانقسام والتوتر خلال الصراع البيزنطي والفارسي، والنزاع المذهبي المختلط بالنزعة الوطنية السياسية للتخلص من المحتلين، هذا الأمر أضعف بنيان هذه الكنائس، وفي مصر لم يواجه الفاتحون جيشاً قبطياً أو حكومة قبطية، وإنما وجدوا كنيسة هرب

١. المستشرق دي جوبيه DE GOBE مذكرات حول فتح سوريا، ص٣٠.

٢. د.أدمون رباط في محاضرة له في بيروت عام ١٩٨١.

بطريركها إلى الدير، واضطُهِد أبناؤها ولم يشتركوا منذ قرون طويلة في إدارة بلادهم[١]، وانسحب البيزنطيون المحتلون.

٢. شعور العرب بتفوقهم على الشعوب المغلوبة، فقد كانوا شديدي التعصب لأصلهم، وفي المقابل يدهش المرء حين يرى المعاملة الممتازة التي كان يخص بها المسلمون القبائل العربية الأصلية التي ظلت مسيحية بعد ظهور الإسلام[٢]، فالانتساب للعروبة الأصيلة ظل عاملاً هاماً في علاقتهم.

٣. إن تقلب السلطة وتخبط سياسة كثير من الولاة وتضاربها، ونَهَم بعضهم للمال، ذلك كله خلق مناخاً لا يساعد على حسن التفاهم[٣]، فقد تولى حكم مصر بعد عمرو بن العاص ثمانية وتسعون والياً، وبرغم ذلك تأتي شهادة واضحة من مؤرخ عربي تقول: إن عامة الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين[٤]، وقد وضع عمرو بن العاص خبرته الواسعة بمصر وأهلها في خدمة الفتح، وآثر أن يترك لهم إدارة الشؤون التي لم يكن العرب يُلمّون بها ومعها مساحة واسعة من حرية العبادة، بل هناك إشارات من المؤرخين بأن عمراً بن العاص لدرايته بمصر وحضارتها فكّر أن يجعل من الإسكندرية عاصمة لتواصل حضارتها، ورفض عمر بن الخطاب فاكتفى على مضض بأن يظل حاكماً مطلقاً لها[٥].

ثانياً: الثورات العربية المعاصرة

إن الثورة العربية التي تجتاح عالمنا العربي من خليجه إلى محيطه هي محاولة

---

١. دكتور: جاك تاجر، أقباط ومسلمون، القاهرة، طبعة ١٩٥١، ص٣٥.

٢. السابق، ص٢٧-٢٨.

٣. السابق، ص٦٥-٦٦.

٤. الكندي: مرجع سابق، ص٧٧-٧٨.

٥. دكتور: جاك تاجر، مرجع سابق، ص٧٧-٧٨.

واجتهاد وسعي للبحث عن هوية مستقبلها وكرامة أجيالها القادمة، أو قل بإيجاز إنها ثورة لوضع حد لعصر غابت فيه الحرية، وفقدت الشعوب خلاله سماتها وخصوصية أوطانها وملامح حضارتها الخالدة، إنها دعوة للتغيير والانطلاق نحو آفاق مستقبل أرقى وأفضل، وتجدر هنا ملاحظة أمر معبّر ومهمّ، هو أن الثورات لم تصرخ: "الموت لإسرائيل" أو: "الموت للشيطان الأكبر أمريكا"، بل ارتفعت الأعلام الوطنية؛ ففي ثورة تونس كان اسمها تونس فوق كل لسان، وفي ثورة ميدان التحرير رُفع العلم المصري، وبادرت الثورة الليبية قبل كل شيء برفع علم الثورة، ومن الأمور الواضحة في تلك الثورات أنها لم تلجأ إلى عداء دولة ولم تستخدم العنف، ولم تطلب الموت حتى لجلاديها وحكامها، بل وابتعدت عن استدعاء الشعارات الدينية، ولذا يمكن القول دون إسراف إنها ثورات المستقبل القادم على الحاضر الراكد المستكين، وعلى مرحلة ماضية أليمة قُيِّدت فيه الشعوب في سجون من الفكر المتجمد والتقاليد البالية، بل والأساطير الباطلة.

هذه الثورات خروج من كهوف الخوف والإذلال إلى ساحات الأمل والاعتزاز بالوطنية والعزة، وأروع ما في هذه الثورات هو بُعدها التلقائي عن كل تطرف أو تعصب أو تزمت، كأنها تفتح صفحة جديدة في تاريخ العرب بعد قرون من الزمن، انطلق فيه العالم إلى حضارة علمية وتكنولوجية، وسقطت فيها الحواجز الجغرافية، بل والتاريخية، وجاءت الثورة لتسقط الحواجز النفسية.

لقد جاهد أبطال الاستقلال لطرد المستعمرين الغربيين، وحرروا بلادهم، وَسَعَوا إلى إقامة أوطان حرة مستقلة، وخاضوا حروباً لتحقيق أهدافهم، ثم سرق الحكام فيما بعد هذه الأوطان وتحكّموا في شعوبها عقوداً طويلة حتى جاءت هذه الثورات لتعيد الكرامة المفقودة.

تواجه هذه الثورات العربية تحديات تنذر بخطر إجهاضها، والعودة بالشعوب إلى عصور الصمت والخوف، بل إلى الفقر والجوع وفقدان الحرية والكرامة، ومن هذه التحديات الفتن الطائفية، والتطرف الديني، ورفض الحداثة والديمقراطية.

وينبغي أن نعترف بأن عقلية "الفرعنة" أو الدكتاتورية لا تزال تسيطر على فكر شعوب المنطقة التي تخشى كلمات مثل المساواة والمواطنة وحقوق الإنسان، والعدالة وسيادة القانون، بل لست مسرفاً إذا قلت إن فئات كثيرة تتمنى حاكماً ديكتاتورياً يعيد الاستقرار والأمن بشرط أن يكون "ديكتاتوراً" عادلاً، وكأنهم يبحثون عن وهم وسراب، فلم يلد التاريخ البشري ديكتاتورية عادلة أو ديكتاتوراً صالحاً، لأن الديكتاتورية في ذاتها شر وبلاء مستطير، وهي من بقايا أساطير الحكم بالتفويض "الإلهي" أو الثيوقراطي، وعصمة الحاكم ذاتها من بقايا عصور الخوف من اقتحام المشكلات والمغامرة بالتجديد، تلك كانت واقعاً عند الشعوب التي تعيش مرحلة الطفولة السياسية والثقافية والدينية.

لقد انحسرت فكرة القومية العربية بعد هزيمة عام ١٩٦٧، وكان لا بدّ لإيديولوجية جديدة تحل محلها وتنتشر في العالم العربي، ووجد التيار الديني فرصته، ونما وترعرع حتى أضحى قوة مؤثرة في كل أنحاء الوطن العربي، وبرغم الحماس والانتشار فإن القضايا العربية تراجعت، بل لم تجد حلولاً، ولم تتقدم التنمية، ولا ساد القانون، وسرق حكامُ الأوطان حريتَها الحقيقية وكرامة تاريخها، بل ورؤيتها للمستقبل، لذا فإن الثورات العربية تواجه هذه التحديات.

وأمام تحدي الفتن ينبغي أن يكون القانون سدّاً منيعاً، فالمساواة بين البشر من القيم الثابتة، والمواطنة هي البديل لهذه الفتن، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأمام تحدي التطرف الديني ينبغي أن تكون العدالة هي الحكم الرادع بلا

تمييز أو تفرقة؛ فحرية العقيدة والعبادة منحة من الخالق، وليس من حق إنسان أن يسلبها من إنسان مختلف عنه ديناً أو مذهباً، أما رفض الحداثة والعلوم فهذا سير ضد التاريخ والتقدم، والعالم دوماً في جديد، والمستقبل دوماً لم يبدأ بعد.

إن الثورات العربية زلزلت هذه المجتمعات التي كانت راكدة محبطة تكاد تفقد الثقة في النفس، حتى تفجرت طاقات الشباب، فمن يقرأ التاريخ ويتأمل في مسيرة تطوره لا يرى مفاجأة في هذه الثورات، إنها تحوُّلٌ فرضته سُنّة الحياة وقانون التقدم، ويمكن إيجاز هذا التطور في كلمات قليلة، لقد سقط عصر "الحكام الأبويين"، عصر الأسر الحاكمة كما كان في الحضارة الفرعونية، فقد نضجت الشعوب، ووضحت الرؤية، وقلبت صفحات العصور الوسطى في العالم العربي تماماً كما سقطت في القرن الخامس عشر الميلادي في أوروبا، استيقظت الشعوب العربية على صخب شبابها وضجيجهم وحركتهم، هذا الشباب الذي لم يقم بانقلاب عسكري مسلح، ولم يحمل سلاحاً، بل هو صاحب دعوة للتطور أكثر منها دعوة للانقلاب والعنف والانتقام، ليس من شباب الطبقة المطحونة الفقيرة المهمّشة، وليس من طبقة الأثرياء وأصحاب الأعمال والنفوذ، بل جلهم من الطبقة المتوسطة التي استوعب عقلُها حضارةَ العصر وتكنولوجيا العلوم، وتذوّق بعض ثمار الحضارة الحديثة عبر ثقافته ورحلاته واختلاطه بالأمم، ونهض بلا قيود محددة، بل هو شباب أشعل نور الحرية، وفتح أبواب الأمل، ورفض الخنوع أمام أنظمة مظلمة فاسدة، ونادى بالعدل والحرية والحداثة والمواطنة.

في مصر، وبالرغم من التحام الشباب المسيحي مع الشباب المسلم إبان الثورة، واختلاط أصواتهم ودعواتهم كما اختلطت دماؤهم وأشلاؤهم، فقد كان موقف

رئاسات الكنائس، بوجه عام، متردداً مهزوزاً، بل سمعنا أصواتاً تنحاز إلى الأنظمة القديمة توجساً من مستقبل مجهول، خوفاً من فوضى بدت تمد مخالبها في المجتمع.

إن تلك الكنائس لم تقرأ التاريخ جيداً، وسكنت إلى فكرة أن الأنظمة هي الحارسة للكنيسة والسياج للمسيحيين، ولم تَنفُذْ إلى عمق الأحداث، فهذه الأنظمة كانت تستخدم في أغلبها ورقة المسيحيين لتثبيت ظلمها وتسلطها بقليل من الحرية الدينية للمسيحيين، وكثير من الظلم والبطش بالملايين المهملين من جميع المواطنين؛ ففي القاهرة مدينة اسمها مدينة الموتى يعيش فيها الآلاف في القبور، اختلط في وجدانهم الحس بالحياة والعيش مع الموتى، ولم يلتفت لهم أحد، ولم تشعر بوجودهم الكنائس أو الجوامع، ناهيك عن مكان العشوائيات، فالملايين سقطت عنهم ملامح الإنسانية، وبدوا كمنبوذين من المجتمع والوطن، علماً بأن من هؤلاء وأولئك يأتي الجيش الذي يحمي البلاد، ويستشهد من أبنائهم من يروي ثرى الوطن، فأبناء القبور والعشوائيات والفلاحين هم العمود الفقري للأوطان، وفيهم بالطبع مسيحيون، وقد شطب النظام أسماء هذه الفئة من قائمة الأحياء.

هل تنبئ حال كنائس الشرق الأوسط بنجاحها في الثبات على الإيمان والصمود أمام التطور التاريخي لأوطاننا، علاقة بعضها ببعض، ونُظُمها داخل بنيانها؟ هل يمكن لها أن تتحمل أخطار المرحلة الانتقالية، وصخب وعبث التيارات السلفية والمتطرفة، أم نكتفي كما جاء في كثير من الرسائل الكنسية بأننا على أعتاب عصر شهداء جديد؟

كيف كانت الحال بين المذاهب المسيحية منذ بزوغ الدعوة الإسلامية؟ لقد انحاز المسيحيون العرب، إبّان صراع العباسيين مع الأمويين، إلى إخوتهم وأقاربهم من بني أمية، فأشاع العباسيون، ويساندهم الفرس، شائعة "النصارى الخونة

للوطن"، ولصقت بهم التهمة حتى اليوم، ثم توافدت حشود حروب الفرنجة وظلت مائتي عام تركت تراثاً من الأدب يتدفق سُمّاً زُعافاً من التّهم والسّبّ بين الطرفين ... إن حياة المسيحيين في الشرق لمأساة حقيقية تحتاج إلى التأمل.

ما يخطر على البال المسيحي، كيف نمتزج ونتوحد مع آلام مجتمعاتنا وآمالها، لقد طالت عزلتنا عن أوطاننا قسراً أو عن رِضا، بل قل طالت غربتنا عن بيئتنا الإسلامية، منا من هرب إلى داخل أعماقه وانطوى، ومنا من هرب إلى بلاد الله الواسعة.

لا ننكر أن مسيحيين انخرطوا في السياسة وأسهموا في صنع المستقبل مع إخوتهم المسلمين، لكنهم مسيحيون من الصفوة، أما في قاع المجتمع فظل المسيحيون في آلام وأحزان، بل قل غرباء في أوطانهم، إننا برغم قلة عددنا نسبياً مدعوون أن نخترق هذه الغربة وهذا الانطواء، وأن نمضي ونسرع بالاهتمام بالمهمّشين والمحتاجين من المسيحيين والمسلمين، أن نصل إلى قاع المجتمعات بأنشطة متنوعة لخدمة الإنسان المسلم أو المسيحي، والضعيف، والمنسي من مجتمعه، إنها رسالة المحبة والإيمان والرجاء.

ثالثاً: دعوة إلى العروبة الثقافية

ظل المسيحيون العرب خلال أربعة عشر قرناً، وبخاصة في حِقَب الإزدهار للثقافة والحضارة العربية، يمثلون خصائص دينية، ويساهمون في تقدم هذه الحضارة والعلوم في المجالات كافة، وبخاصة في مجال نقل الفلسفة اليونانية والعلوم الطبيعية وترجمتها، واليوم في ظل عصر الثورات العربية والنهضة الواعدة يمكن في إطار العروبة الثقافية، والتي هي بعض من الحضارة الإسلامية، أن تكون مجالاً واسعاً من الإبداع توحّد بين إنسانية الإسلام وإنسانية المسيحية،

والعلوم الإنسانية اليوم قادرة على تقديم دراسات تُحْيي الثقافة العربية من داخلها وتراثها، وتدعو إلى نظرات نقدية تحليلية، بديلاً عن الدراسات الغارقة في الأيديولوجيات، لنخرج من كهوف الفكر الجامد، متسلحين بما فيه من قيم رائعة، منطلقين إلى رحاب الواقع الاجتماعي والديني، مدركين ما حدث في العالم من تطور وتقدم وتقارب، وينبغي أن لا نحبس العروبة في خندق الأصولية والأيديولوجية الدينية، وليس في صالح مستقبل المسيحيين العرب كبرياء التاريخ باسم إيمان أو حضارة ماضية أو معاصرة متفوقة مما يضمهم تلقائياً إلى جانب الغرب أو العلمانية، كما على المسلمين ألا ينظروا في عصر العلوم والحرية والمواطنة إلى المسيحيين كأهل ذمة، وكمستضعفين تحت حماية الحكومات.

إن الحاجة ملحة إلى تغيير هذا الفكر، وهذا النظر إلى المواطنين العرب كافة، مسلمين ومسيحيين بفكر ينظر إلى قيمتهم الإنسانية، فالإنسان- كل إنسان- هو خليفة الله على الأرض.

إن النقاش الممتد عبر العصور بين الإيمان وبين العقل، أو قل بين الدين والثقافة، يفتح آفاقاً جديدة للتواصل وإغناء العروبة الثقافية، ذلك أمر يحتاج إلى كثير من الجدية واحترام النصوص التي نعتبرها مقدسة دون أن تكون حاجزاً للخروج إلى ثقافة إنسانية عالمية كونية.

إن صرخات شباب الثورات العربية التي زلزلت صمت الفضاء العربي، وامتزج فيها دم الشاب المسلم بدم الشاب المسيحي في كل ميادين مصر، هذه الصرخات دعت إلى أن نكون من مواطني العالم، ننعم بالحرية والمساواة، ونظل عرباً مخلصين لثقافتنا وتراثنا وأصالتنا، وأحد عناصر تحقيق هذه الصرخات هو إطلاق حرية النقد العقلاني بعد أن سقط الخوف من السلطات ... ينبغي إسقاط الخوف من التفكير والإبداع.

وكما ننادي بالعروبة الثقافية، ندعو أيضاً إلى حضارة المستقبل المشترك، كما كان الماضي عيشاً مشتركاً، وذلك لن يتأتى إلا إذا ساد السلام بين أبناء الوطن الواحد دون تمييز أو عنصرية أو عنف، فعلى المسيحيين العرب أن يسهموا في البناء لكي يستعيد العالم الإسلامي وحدته القوية والعالمية، دون خوف أو تردد، فهذا عالمنا، وهذه وحدتنا.

إن الوطن العربي في مخاض عسير، وعلينا أن نجتهد ليولد مجتمع متعدد الأديان من خلال العروبة الثقافية، وبناء المستقبل المشترك، كما ينبغي غربلة الذاكرة العربية وتطهيرها مما ترسب فيها من فكر ضيق وأساطير العداوة والكراهية.

إن الثورات العربية محكوم عليها بالفشل إن لم توفر للمواطن الحد الأدنى من العيش الكريم، وإن لم تطلق سراح العقل وتصون حرية الوجدان الديني، وتوفر العدالة الاجتماعية والمساواة، فقد رُوِّعت مصر بأسرها من أحداث التدمير الذي أصاب الكنائس والقتل للأبرياء في أماكن العبادة، ذلك قبل الثورة وإسقاط نظام الحماية القديم، وتدفق الكثيرون إلى طرق الهجرة فَزَعاً وخوفاً، ثم نهض الشباب بثورتهم متحدين، مسلمين ومسيحيين، مما أعطى الأمل في مستقبل أفضل للجميع، وسمعت أصوات شجاعة من المسلمين تنادي بالمساواة والعدل، وكأن روح الإسلام وروح المسيحية التقتا للدفاع عن "قيمة الإنسان وكرامته"، وداعب الأمل وجدان المسيحيين.

هل يحمل المستقبل بعد الثورة، وفيما ترسم خريطة جديدة للشرق الأوسط، حرية دينية أكبر أم أصغر؟ هل يتسع مجال أوسع للمسيحيين أم سيضيق عليهم الخناق؟

أما رؤيتي ورأيي الذي أختم به هذه الكلمات، منطلقاً من ثقتي بالله سبحانه وتعالى، ومن ثقتي في الإسلام الذي أغنى الفكر الإنساني خلال توهجه في عصره

الذهبي، وثقتي بأخي المسلم الذي عاش مع أخيه المسيحي العربي قروناً طويلة، وثقتي بأنوار الحضارة الإنسانية التي تتسرب يوماً بعد يوم إلى كل مكان، ثقتي لا تهتز بأن العقل الإسلامي قادر على استيعاب حضارة العصر، وعلى قدر عظيم من المرونة للمصالحة بين الشريعة ونصوصها وبين متطلبات العصر، فالإنسان أدرى بشؤون دنياه، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإني واثق أن المسيحيين العرب، وهم أبناء أُصَلاء للوطن العربي ليسوا بدخلاء أو وافدين أو جاليات غريبة، لن يتركوا أوطانهم ولن يبتعدوا عن بناء مستقبلها متحدين مع أبناء شعبهم.

إني أرى فجراً جديداً للأمة الإسلامية، والأمة العربية، هذه الأمة التي تضم المسلمين والمسيحيين، ولكنّ للتقدم والتطور ضحايا وذبائح، وتلك سُنّة الحياة وقانون الفداء.

وأخيراً، أجيب على السؤال: المسيحيون العرب.. إلى أين؟ بيسر وبساطة أقول: مع إخوتهم المسلمين، مستقبلهم مستقبلنا، جهادهم جهادنا، إيمانهم من تراثنا وإيماننا من تراثهم، ذلك هو السبيل الوحيد لبقاء المسيحيين العرب.